مدرسة عليكده ومؤسسها

صدر الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية وفيه تسع عشرة مقالة في مواضيع مختلفة سياسية وادبية ست من هذه المقالات دبجتها اقلام النساء وهي المقالات الفضلى لان اكثر مقالات الرجال عن الحرب والسياسة واما مقالات النساء فاكثرها عن التعليم والتهذيب ومنها مقالة موضوعها الاسلام في الهند مدارها على مدرسة عليكده ومؤسسها السيد احمد خان وهي من اصرح ما قرأناه عن تلك المدرسة فلخصناها في ما يلي

قالت الكاتبة ان السيد احمد خان يفرق عن كل الذين قصدوا اصلاح حال المسلمين وهم لا يعرفون مبادئ العمران الاوربي في ان اولئك حاولوا الرجوع بالمسلمين الى ما كانوا عليه في زمن الخلفاء الراشدين اما هو فحاول مجاراة العصر الحاضر كأن لسان حاله يقول البس لكل حالة لبوسها لانهُ عاشر الاوربيين وعرف مقتضيات الزمان ورأى ان مستقبل الهند للانكليز لا للمغول . وكان معاصروهُ يستهزئون برأيهِ ثم لما تعلَّم اللغة الانكليزية حكموا انهُ كافر وشُنع انباؤهُ واصدقاؤهُ من معاشرتهِ ومخالطتهِ ومضت مدة طويلة وهو مقاطَع مقصيّ . واخيرًا اجترأت امرأة من اقاربهِ على دعوتهِ الى بيتها وقدمت لهُ الطعام واكلت من الصحفة التي اكل منها وتلك جرأة لم يكن احد يقدم عليها فوقف الناس مبهوتين وتجاسروا من ذلك الحين على معاشرتهِ

وعكف على ما كان يحسبهُ واجبًا عليهِ وهو احكام عرى الوئام بين ابناء ملتهِ وحكامهم من الانكليز . ثم قامت الفتنة فكانت ضربة قاضية على امانيهِ لانها تركت وراءها حزازات في الصدور يتعذَّر بروؤها فعزم على الرحيل عن بلاد الهند والمهاجرة الى بلاد لا يرى فيها فرقًا بين سكانها لكنهُ عاد ففكر في ما يمكن ان يحل بابناء بلادهِ بعد الفتنة فرأى ان المروَّة تقضي عليهِ بالبقاء بينهم ليتلمسهم الضرَّاء ويسعى في تخفيفها على قدر طاقتهِ

وكان المسلمون في ذلك الحين اقل شعوب الهند استفادةً من وسائل التعليم والتهذيب التي استحدثتها الحكومة الانكليزية . وما قالهُ في هذا الصدد " ان حالتنا الاجتماعية وتقاليدنا الماضية ومالها في نفوسنا من المنزلة الثابتة وتصوراتنا الدينية التي رضعناها مع اللبن كل ذلك يمنعنا عن تقدير التعليم الانكليزي قدرهُ " (١)

ولم يكن الناس يعبأون بالتعليم وحتى الآن يكتفي الاغنياء بتعليم اولادهم المبادئ

(١) من خطابهِ المورد في سنة ١٨٧٧

البسيطة في المكاتيب الدينية فحاول ان ينهض الناس من ذلك الخمول راجيًا ان يشترك ابناء ملته في المستقبل السعيد الذي قدّر لبلاد الهند في ظل العلم البريطاني ولا يتم لهم ذلك ما لم يفتحوا ابوابهم للعلوم الغربية ولوسائل العمران الغربي فكان مدار مطالبه التوفيق بين الشرق والغرب . وتوفّق بعد عناء شديد مدة عشر سنوات الى تأليف لجنة تبحث عن الاسباب التي تمنع المسلمين من ارسال ابنائهم الى مدارس الحكومة والوسائل التي يمكن العمل بها لجعلهم يعلمونهم العلوم اللازمة لهم . وعينت هذه اللجنة جوائز تعطيها لمن ينشئ الرسائل المفيدة في التعليم فاتتها اثنان وثلاثون رسالة فطالعتها فوجدت انها تشير بانشاء مدرسة كلية لتعليم ابناء المسلمين . فاقيمت في السنة التالية لجنة لجمع الاموال التي يكتتب بها اهل البر لانشاء مدرسة كلية انكليزية شرقية وابتدأ العمل في هذه المدرسة سنة ١٨٧٥ في عليكده وبعد سنتين وضع لورد لتن اساسها واهتمت الحكومة الانكليزية بها شديد الاهتمام واكتتب بالاموال اللازمة لها كثيرون من مسلمي الهند ومن الانكليز ولكن اكثر الاموال من المسلمين واكثرهم تبرعًا نظام حيدراباد فان وزيره السر سلار جنغ كان اول من قدر هذا العمل قدره . وشاركهم الهنود الوثنيون في هذا العمل المبرور لان السيد احمد خان جعل نظام المدرسة بحيث يرغب الهنود الوثنيون في مساعدتها ايضًا . وزاد عدد التلامذة من ١١ سنة ١٨٧٥ الى ٢٧٠ سنة ١٨٧٧ ودخل المدرسة السنوي من ٥٥٠٠ ربية الى ٤٤٠٠٠ ربية

اما الغرض من هذه المدرسة على ما قاله السيد احمد خان فهو "التوفيق بين العلوم الشرقية والعلوم الغربية وجعل مسلمي الهند رعايا مخلصين الرعوية البريطانية موالين لحكومة ولاء ناتجًا عن معرفة نفعها لهم لا عن الخنوع لسلطتها (١)" واشار الى التعليم الديني فيها في خطبة اخرى فقال "اننا ادخلنا فيها من التعليم الديني ما لا نراه في مدرسة اخرى لكي ترقي آداب التلامذة وقد اعتمدنا على المبادىء التي ترقي الآداب لا على الرسوم والشعائر (٢)". وغرضه تقوية اجسام الطلبة مع تهذيب عقولهم وقد قال في ذلك "ان لا بد من الالعاب الرياضية كما لا بد من تثقيف العقل وتهذيب الاخلاق" (٣). واشار الى ذلك مرارًا كثيرة وجعل نظام المدرسة مثل نظام مدارس الحكومة . وقد كلّل عمله بالنجاح لانه بذل جهده وقضى عمره فيه . وكان همه الاول منجهًا الى ما خاف ان لا يهتم به غيره فكان في وقت من

(١) خطابة للورد لتن سنة ١٨٧٧ (٢) خطابة للسر اوكلند كولفن سنة ١٨٨٨ (٣) خطابة للورد رمن سنة ١٨٨٤

الاوقات حائرًا بين ان يتم بناء المدرسة او بناء الجامع ولم تكن الاموال التي لديه كافية للاثنين فاتمّ المدرسة وترك الجامع قائلاً ان ابناء وطني يتممون بناءه ولو لم يفعلوا شيئًا آخر واما المدرسة فاخاف انهم يهملونها

ولما توفي سنة ١٨٩٨ كانت المدرسة مديونة بنحو مئة الف ريّة وقد فقدت بفقدو اليد التي كانت تديرها لكن الذين يكرمون اسمهُ عضدوها وحفظوها . وخلفهُ النواب محسن الملك فكان خير خلف لخير سلف وقد قال لي انهم معتمدون على انفسهم ومتوقعون النجاح بسعيهم

وبناي المدرسة ليست فاخرة لكن صيتها كالملك وقد انتشر في الاقطار وكثر تلامذتها فلم تعد مبانيها تسعهم ولا تزال تردُّ كثيرين من الطلبة لضيقها . وكثرة الطلبة لا تزيد دخلها لقلة الاجور التي تتقاضاها ولذلك فهي في حاجة شديدة الى المال للتعليم وللاكثار من الاساتذة الانكليز لتصير جامعة مستقلة في اعطاء درجاتها عن مدرسة الله اباد ومدرسة كلكتا وحينئذٍ تصير كما قدَّر لها السيد احمد خان حينما شرع في انشائها ولم يكن فيها الاَّ احد عشر طالبًا اي تصير معهدًا لعلوم الاسلامية ومصدرًا للاصلاح المنتظر الذي يردُّ الدين الى اصوله الاولى ويبعد عنهُ الاوهام التي ولَّدتها ازمنة الجهل

ولا يسعني المقام لوصف هذه المدرسة بالتفصيل ولا انا قادرة على ذلك فاكتفي بالاشارة الى الغرض الذي يتوخاهُ اساتذتها وهو الغرض الذي ارادهُ منشئها الحكيم اي التوفيق بين الانكليز والهنود لكي يعملوا معًا لمصلحة البلاد . ولقد تكلمت مع ثلاثة من اساتذتها الوطنيين وهم يحسنون اللغة الانكليزية مثلي احدهم شيعي من اصل فارسي دخل اسلافهُ بلاد الهند مع اول فاتحيها هربًا من خلفاء بغداد من بني العباس . والاثنان الاخران من السنَّة وقد دخل اسلافهما الهند مع فاتحيها ايضًا بعد ما دخلها اسلاف الاول . فسألتهم عما اذا كان انتسابهم الى المذهب الواحد او الى المذهب الآخر يؤثر في معاملاتهم بعضهم مع بعض فاجابني واحد من السنية قائلاً ان هذا الاختلاف في المذهب لا يؤثر تأثيرًا يذكر فانهُ لم يعلم ان صديقهُ شيعي الاَّ بعد ان تصادقا بزمن طويل . فلا شأن لا خلاف المذاهب في عليكده

والطلبة يقصدون هذه المدرسة من كل الاقطار الاسلامية من بلاد ملقا شرقًا الى بلاد الصومال غربًا وقد رأيت في مجموعة الخطب التي القاها السيد احمد خان خطبة يقول فيها " يسرنا ان نعدَّ بين تلامذتنا السردار محمد يوسف خان الذي هو من اكبر الحكام في بلوخستان[1] . ولهذا الرجل قصة تستحق ان تدون في بطون التاريخ فانهُ ابن جام (حاكم)

(١) خطابة للقاضي سترجمت سنة ١٨٩١

"لاس بلاً" العدو الالد لخان خلاط مناضد في بوخستان حسب تقاليد البلاد مدة الاثني سنة الماضية ولما صار لهُ من العمر اربع عشرة سنة رأى ابوهُ ان يرسلهُ الى عليكده لكي يتعلم فيها ويتفقه ويكون رهناً عند حكومة الهند على ولاء ابيهِ لها . وكان الفتى بديع المنظر قال المستر موريس انهُ "اجمل فتى وقعت عليهِ عيني" فسرَّ من المدرسة وبرع في علومها وآدابها واختلب قلوب الذين عاشروهُ . ولم يمضِ عليهِ سنتان فيها حتى بلغت مساوئ ابيهِ حدّاً لا يطاق فخلعتهُ حكومة الهند ونصبت ابنهُ بدلاً منهُ . فخرج من مقام العلم والتهذيب الى بلاد على حدود الهند تكثر فيها القلاقل والفتن وكان في خدمتهِ رجل امين اتى معهُ من بلاط ابيهِ فلما بلغ "لاس بلاً" وجد ان اباهُ لا يفكر في طاعة حكومة الهند وانهُ كان يعدُّ حملةً على خان خلاط وامرهُ ان يذهب فيها . فجعل ينصح لابيهِ ان لا يخرج من طاعة الحكومة ولم يكن ابوهُ يعرف غير بلاده فلم يعبأ بنصائحهِ . وبقي الابن يحاول اقناع ابيهِ ستة اشهر فكان كالضارب في حديد بارد واخيراً اضطرَّ ان يجاري اباهُ وخرج معهُ لحرب خان خلاط . وكان لابيهِ اخ يتمنَّى ان يخرج اخوهُ وابنهُ للحرب لكي يفتن البلاد عليهِ فلم يكادا يخرجان حتى جمع جيشاً كثيفاً وتبعهما ووعد حكومة الهند بانهُ يحتفظ بحياة الولد وما زال يقتفي اثرهما وهما يهربان من وجههِ بين الجبال الى ان حصرهما في كهف كبير ولما فرغ زادهما خرج اخوهُ برجالهِ لقتالهِ فقُتل هو ورجالهُ ووقع ابنهُ جريحاً فنشش عمهُ عنهُ بين القتلى واطلق سبيلهُ

ولما جلستُ في مباني المدرسة كانت الشمس قد مالت الى المغيب فمررنا في حديقة رئيسها وقد قام الورد فيها على اغصانهِ وهبَّ نسيم عليل يمير بهِ فصل الشتاء في شمالي الهند احسن الفصول . فدخلنا النادي وغرف الدرس والقراءة والنوم وما زلنا ننتقل من مكان الى آخر الى ان وصلنا الى المطبخ واذا رئيس الطهاة فيهِ رجل كبير السن من نسل المغول سلاطين الهند وهو حفيد بهادر شاه آخر سلطان من سلاطين دهلي . لما نشبت الفتنة في بلاد الهند كان طفلاً مع امهِ ولكنهُ لا يزال يتذكر كيف توسَّلت امهُ الى الاسطان ليحميها فاجابها انهُ لا يستطيع ان يحمي نفسهُ فهربت بهِ الى قبر همايون ومن هناك الى القرى المجاورة وجعلت تبيع حلاها شيئاً فشيئاً حتى اذا بلغ اشدَّهُ حاول استرجاع شيء من املاك ابيهِ فلم يستطع لمضي الزمن وغاية ما يتقاضاهُ الآن من حكومة الهند خمس روبيات في الشهر هذا كل ما بقي لهُ من ملك اسلافهِ . ولما كنا نتكلم عنهُ دخل وحياً وهو شيخ طويل القامة مهيب الطلعة فكلمتهُ بالفارسية وقلت لهُ انني سمعت قصتهُ فخفض رأسهُ وقال نعم" اني من ابناء الملوك" . فعجبت من تقلبات الدهر وغير الايام

وخرجنا الى ساحة اللعب فذكرتني بساحة اللعب في مدرسة انُن وكانت الشمس قد كادت تتوارى في الحجاب رجاء الامام وهو رجل جليل القدر فدخل الجامع الذي تركه السيد احمد خان قبل ان يتمّ فاتحة الدين خلفوه وبادر التلامذة من ساحة اللعب وخلعوا احذية الكاوتشوك التي كانوا يلعبون بها وتوضأوا ودخلوا يصلون وراء الامام والروح التي علّم بها السيد احمد خان ترفّ فوق ذلك المعهد العلمي تعلّم الطلبة احترام الماضي ورجاء المستقبل والسلام الذي يُنال بالعلم والعرفان

هذه خلاصة المقالة . وقد رأينا نحن اثنين من تلامذة تلك المدرسة فوجدناهما من اشد الناس ولاء لحكومة بلادهم

علم الاخلاق

لسبنسر

(٤) العدل (وهو يتضمن المساواة والانصاف)

لا شيء ادل على وجود الخير في الشرّ من وجود فضيلة العدل في نقيصة الانتقام ولو على قدر طفيف. فان الغرض الاول من مقابلة الاعتداء بمثله منع المعتدى عليه للمعتدي من سحقه ومحافظتهُ على حق وجوده الذي يتضمنهُ العدل . والغرض الثاني اجراء العدل مجراهُ بتأييد مبدإ المساواة بين الاثنين وذلك يكون بان يلحق المعتدى عليه بالمعتدي أضرارًا مساوية للاضرار التي نالتهُ منهُ

على ان هذه الطريقة لاعادة التوازن قلما تفي بالمطلوب . لان المنتقم لا يكتفي عادة بمقابلة الاضرار التي نالتهُ بمثلها بل يذهب الى ابعد من ذلك فيثير انتقام المعتدي وهكذا حتى تؤول الحال الى حروب مستعصية بين القبائل وعداوات موغرة مزمنة بين العائلات والافراد تبقى من جيل الى جيل

وقد يظهر الفريقان احيانًا ميلاً الى الموازنة بين الاعتداء والانتقام حتى لا ترجح كفة الواحد على كفة الآخر . فان كثيرًا من القبائل الهمجية مثل اهل استراليا الاصليين تظهر باعمالها ان قتل رجل من هذه القبيلة لا بدّ ان يقابل بقتل رجل من تلك وهو الذي ثبت انهُ قتل او اشبه فيهِ . هذا ولما كان الموت من المرض او الشيخوخة يعزى عند بعض القبائل الى مكايد الاعداء وكان لا بدّ من مقابلته بمثله اقتضى الامر ان يفقد الفريقان من رجالها